سلسلة محاضرات (١)

العلماء والميثاق

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد..

فالعلماء هم نجوم الأرض، يهتدى بهم في ظلمات الجهل إن ظهروا اهتدى الناس، وإن غابوا تحيروا، خير من وطئ الثرى، وأحسن المكلفين عاقبة إن قاموا بأمر الله، ومن أسوأهم إن فرطوا وخالفوا، هم قادة الشعوب نحو كل خير.

ولهذا كان مورثهم النبي صلى الله عليه وسلم فليقتدوا به وبهديه، فلا أحد يغني عن أحد عنده في حكم الله، وكلما كان العالم لهديه أقرب، كان منه أقرب يوم القيامة، وأبعدهم أبعدهم..

و«رضى الناس غاية لا تدرك» -كما قال الشافعي- وطالبه مفلس، وإن ظن الربح ساعته، ولكن ليعلق قلبه وبصره بما في يد الرحمن لا بما في يد عباده..

وليعطي من عرضه ليوم فقره.

وما بين يديك محاضرة مفرغة، جزى الله كاتبها وطابعها خيراً، وأسأله النفع، وإياه أحمد في البدء والختام

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فلا يخفى على كل ذي لب أنه ما من خير وضعه الله عز وجل في هذه الأرض إلا وأصله ومادته من العلم، وما من شر إلا وأصله ومادته ومنبته من الجهل، ولذلك رفع الله بالعلم العلماء ووضع بالجهل الجهلاء، وقد جعل الله لأهل العلم من الخير والفضل والمنقبة في الدنيا والآخرة ما لا يخفى، فالعلم فضله يدل العقل عليه، والجهل يكفي في بيان ذمه أن الجاهل يتبرأ منه، ويكفي في فضل العلم أن يلتمسه حتى أهل الجهالة :

يعد رفيع القوم من كان عالماً
وإن لم يكن في قومه بحسيب

وإن حل أرضاً عاش فيها بعلمه
وما عالم في بلدة بغريب

فلعلماء الإسلام سلطان على الأرواح، تخضع له العامة طواعية ورغبة خضوعاً فطرياً، لا تَكَلُّفَ فيه لشعورهم أن العلماء هم المرجع في بيان الحق، ولذلك جعل الله أهل العلم بالمقام المحمود عنده.

إذا عُلِمَ أن الإنسان لا يمكن أن يَتَعَبَّدَ للهِ ﷻ بشيء من العبادات والقُرُبَات إلا بالعلم، عَلِمَ فضله وأنه ما من خير يعمل به الإنسان إلا لسابق علم أو أثاره وصلت إليه فَعَمِلَ بما عَلِم، ولذلك أشهد الله العلماء على أشرف معلوم وهو توحيد الله فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨].

توحيد الله أعظم ما يُتَقَرَّبُ به إليه وأشرفه، هذا العظيم في حال الشهادة، يُطْلبُ له العلماء، ولذلك أشهد الله الملائكة ومن الناس العلماء، وذلك أنه لا يُشْهَدُ على العظيم إلا العظماء.

ورفع الله أهل العلم في الدنيا على أهل الجهالة



فمراتبهم بين الناس على قدر علمهم وتمكنهم من وحي الله سبحانه.

وإذا أُطْلِقَ العلم في كلام الله وفي سنة رسول الله ﷺ فالمراد به العلم الشرعي، ولذلك يقول النبي ﷺ - كما في المسند-: «العلماء ورثة الأنبياء، إن العلماء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

وقد أمر الله ﷻ نبيه عليه الصلاة والسلام أن يسأل زيادة من العلم فقال الله جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فلم يأمر الله نبيه - عليه الصلاة والسلام - أن يسأل شيئاً من خيري الدنيا والآخرة زيادة فيه إلا زيادة في العلم - لفضله وجلالته - وأن الإنسان قدره عند الله بقدر علمه بوحيه، وعمله بذلك.

ووحي الله هو كتابه وسنة رسوله ﷺ، قال الله جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فدرجاتهم عند الله بقدر علمهم،

---

(١) رواه مسند أحمد (٥/ ١٩٦) ورواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ودركاتهم عنده بقدر جهلهم.

ولذلك ما عُصِيَ الله ﷻ إلا بجهالة، وما عُبِدَ إلا بعلم ومعرفة.

وقد كان أهل العلم هم أهل الحظوة والفوز عند الله، وجاء الله بآيات كثيرة في مدحهم، وجاء بمدحهم في سنة رسول الله ﷺ من الأحاديث ما لا يحصى.

ويكفي أن الأصل في العلماء العدالة، ولذلك يقول النبي ﷺ كما في المسند وغيره «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»[١].

قال ابن عبد البر رحمه الله «وفيه دلاله على أن العلماء عدول وهو الأصل فيهم»[٢] ونبه على هذا ابن القيم[٣] - عليه رحمة الله - وذلك أن رسول الله ﷺ قال هنا «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله».

والمعنى في حديث رسول الله ﷺ هذا ظاهر.

ويكفي في ذلك أن الخير لا ينتشر في الأرض إلا

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل(١/ ١٥٢) و (٣/ ٢٥٦)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٥٦).

(٢) التمهيد (١/ ٢٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩٥ - ٤٩٦).

بالعلماء، وأن الشر لا ينتشر في الأرض إلا بفقدهم، ولا ينقص الخير إلا بفقد العلماء.

مهمة العلماء أن يتصدوا للتيارات الجارفة بالأمة نحو الهلاك، هم القادة المصلحون الذين يقودون العباد والبلاد إلى بر الأمان، هم الطليعة الذين يتقدمون الشعوب نحو كل خير، وهم محل ثقة الناس عامة، وقد خصهم الله بالذكر، ولذا قال الله في بيان فضلهم في هذه الأرض، قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وقال الله - جل وعلا - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرّعد: ٤١].

والمراد بِنُقْصَانِهَا كما جاء عن غير واحد من المفسرين هو ذهاب العلماء والفقهاء، فقد روى وكيع عن طلحة ابن عمير عن عطاء بن أبي رباح، قال في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرّعد: ٤١].

قال: ذهاب فقهائها وخيارها»[(١)].

---

(١) انظر جامع البيان للطبري (٧/٤٠٨).

قال ابن عبد البر: «قول عطاء في تأويل هذه الآية حسن جداً، تلقاه أهل العلم بالقبول»[١].

وروي هذا عن غير واحد من المفسرين، فقد روي ذلك عن مجاهد بن جبر، كما رواه سفيان عن منصور عن مجاهد بن جبر، قال في قول الله ﷻ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

قال «موت الفقهاء والعلماء».

فأطراف كل شيء شريفه، وأفضل شيء فيه، ولذلك يقول الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وردت منىً
أطراف كل قبيلة من يمنع

أي أشراف كل قبيلة.

ويقول الأعشى:

هم الطُّرُفُ البَادُ العَدُوِّ وأَنْتُمُ
بِقُصوى ثَلاثٍ تَأكلونَ الرَّقَائِصا

من نظر إلى الشر حينما ينتشر في الناس فإنه لا ينتشر

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٠٥).

إلا بسببين لا ثالث لهما:

أحدهما: بفقد العلماء واندثارهم في هذه الأرض، وهذا مصداق قول الله - جل وعلا -: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: ٤١].

والسبب الثاني: تقصير العلماء بالقيام بواجبهم وذلك حال وجودهم، ولذلك يقول النبي ﷺ كما في البخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**[1]» فإن أهل الجهالة لا يتصدرون إلا حينما يغيب أهل العلم الذين يقومون بأمر الله، فمهمتهم في هذه الأرض أن يدلوا الناس إلى الخير ويحذروهم من الشر، ويقودوا هذه الأمة إلى بر الأمان على مر الأزمان، وقد جعل الله لهم الثقة المطلقة بين العباد، وأمر الله بالرجوع إليهم عند المشكلات والمعضلات، يقول الله في كتابه العظيم: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ

---

(١) مسلم (٢٦٧٣).

ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣].

وأمر الله حال نزول الفتنة والفِرقة والشقاق والنفاق بين الناس أن يكون مرجعهم كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، بِفهمِ أهل العلم والمعرفة بكلام الله.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النّساء: ٨٣].

والذين يستنبطونه منهم هم العلماء العارفون بكلام الله، وقد أمر الله عز وجل بالرجوع إليهم والنهل من علمهم، فإنهم هم أهل البصيرة لأنهم أعلم الناس بالله، ولذلك قد جعل الله لهم من الخيريه والمزية والفضل في هذه الدنيا ما لم يكن لغيرهم.

وتوعّدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة إن خالفوا أمر الله.

وحينما يكون الإنسان بين ثواب جزيل إن وافق وعقاب أليم إن خالف فإنه يكون أقرب الناس إلى الصواب وأحراهم بالتماسه وأدقهم بسلوكه والقرب من الحق، ولذلك كان أهل العلم أقرب الناس إلى الحق والصواب، وأقربهم إلى فهم الحق والبينة، وقد سُمُّوا النجوم فقد جاء

ذلك على لسان رسول الله ﷺ، ففي المسند في حديث رشدين بن سعد عن عبد الله بن الوليد عن أبي حفص عن أنس مرفوعاً: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهْتَدَى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن يضل الهداة»[١].

وجاء عن رسول الله ﷺ بأصح من هذا بمعناه، ما في صحيح الإمام مسلم[٢] من حديث أبي موسى الأشعري حينما قال «أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذ ذهب أصحابي أتي أمتي ما يوعدون».

والمراد بذلك العلم وليس المراد بذلك ذواتهم.

بل إن الله قد جعل الخيرية في أهل العلم كما جاء في الصحيحين[٣] أن رسول الله ﷺ قال «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وقال - عليه الصلاة والسلام - «من سلك طريقا

---

(١) المسند (٣/ ١٥٧).

(٢) مسلم (٢٥٣١).

(٣) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) كلاهما من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريق إلى الجنة)[١].

فالعلماء هم ورثة الأنبياء، والعلماء ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، فالأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم من أخذ به أخذ بالحظ الوافر.

وقد كان العلماء في الأرض كالنجوم يهتدى بها ولذا يقول النبي ﷺ كما روى الإمام مسلم[٢] من حديث سعيد ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة المغرب، ثم قلنا : لو جلسنا حتى نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال : «ما زلتم مكانكم هٰهنا . قال: قلنا نعم يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال : «أحسنتم، أو قال أصبتم».

قال: فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء فقال - عليه الصلاة والسلام - «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) [٢٥٣١].

يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهبوا أتى أمتي ما يوعدون».

وهذا تشبيه بليغ لحملة الوحي، وحملة العلم أنهم كالنجوم يهتدى بهم، وقد روى أبو نعيم في كتابه الحلية من حديث الحسن عن أبي مسلم الخولاني، قال: «مثل العلماء مثل النجوم في الأرض إذا بدت لهم اهتدوا وإذا خفيت تحيروا»[١].

وقد جعل النبي ﷺ مقامهم في أمته كالنجوم بالنسبة لمن يسلك البر والبحر ويعرف الجهات بعضها من بعض، وليس المراد بذلك أصحاب رسول الله ﷺ بذواتهم، ولكن بما نالوه من شرف الصحبة والقرب من الوحي والنهل من كلام الله سبحانه، - وكلام رسول الله ﷺ والمعرفة فيه.

ولذلك كان الاختلاف والفِرقة فيهم أقل من غيرهم، قال عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» والسبب في ذلك والحكمة البالغة هو قربهم من الوحي ومعرفتهم بمواضع التنزيل، فإنه كل ما كان الشخص إلى التنزيل أقرب كان به أعلم،

---

(١) حليلة الأولياء (١٣٨/٥).

وهذا ظاهر كلام رسول الله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ومن نظر إلى حديث أبي موسى في بيان فضل العلم والعلماء، وأنهم كالنجوم، وأن الصحابة في هذه الأمة كالنجوم يهتدى بها، فإذا ذهبوا أتى أمة محمد ما توعد، من نظر إلى رسول الله ﷺ وبقائه في أمته كان موطن نزع للخلاف، ودحض للشر، وبيان للخير، مرجع ومآل، يأرز إليه كل من طلب خيراً، عرف فضل العلم.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ في عصره على وفاق تام وأما من أضمر نفاقاً فإنه يظهر وفاقا لرسول الله، وذلك من باب الخشية من قوة الإيمان، وقوة أهله وقوة أصحاب رسول الله ﷺ.

ورسول الله ﷺ كان حامل الخير وحامل مشعل الهداية، يهتدي به من جاء بعده من أصحابه، ومن جاء بعدهم من أمته.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ بعده الأمان لهذه الأمة لما يحملون من الوحي، فلم يلبث رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس بالله - أن توفي حتى نشب الخلاف اليسير بين أصحاب رسول الله.

وأول خلاف نشب ورسول الله ﷺ مسجى لم يدفن (أمات رسول الله ﷺ أم لم يمت؟).

وهذا أول خلاف وقع في هذه الأمة بعد وفاة رسول الله مصداقاً لقوله: «أنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون»، روي البخاري[(١)] من حديث ابن عقيل عن الزهري عن أبي سلمة عن عائشة - عليها رضوان الله تعالى - قالت: (توفي رسول الله ﷺ وجاء أبو بكر من داره، فدخل مسجد رسول الله ولم يحدث أحداً حتى دخل داري، فجاء لرسول الله ويَمَّمه وهو مُغَشًّى بثوبِ حِبرَة، فكشف عن وجهه وأكب عليه فقبله وبكى، فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد متها).

قال الزهري رحمه الله: حدثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: (خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس، فأمره أن يجلس فأبى، فأقبل الناس إلى أبي بكر الصديق، وتركوا عمر، فقام أبو بكر فيهم فقال: (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله ﷻ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

---

(١) برقم: (٤٤٥٢) و(٤٤٥٣).

خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤].

قال عبد الله بن عباس: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت على رسول الله ﷺ إلا لما تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها).

روى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (والله لما سمعتها من أبي بكر حتى ما تقلني رجلاي، وحتى اهتويت إلى الأرض، حتى سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات).

وفي هذا أن أهل العلم مهما بلغوا بالعلم بوحي الله، أنهم في حال الفتنة واضطراب الزمن، وما يحدث من نوازل، قد يغيب عنهم من الدلائل والحجج الظاهرة ما يغيب عنهم، كما غاب عن عمر بن الخطاب تلك البينة الظاهرة من كلام الله، وعَلِمَ أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ من الأمة أبو بكر، وحينئذ يلتمس لمن غاب عنه الدليل العذر، كما عذر عمر بن الخطاب هنا لما تلا أبو بكر قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٠-٣١].

وقـول الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤].

فلم يلبث أصحاب رسول الله ﷺ إلا لحظات أو ساعات من الزمن حتى ائتلفت كلمتهم، لأنه قد قام بهم أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ، واستدل بوحي الله.

ثم لم يلبث رسول الله وهو مسجى ببردته حتى وقع خلاف آخر يسير لم يوقع الفرقة والشقاق، ولكنه لم يلبث أن نُزع بالعالِمين بالوحي، وكان أعلمَهم أبو بكر فاختلفوا أين يدفن رسول الله ﷺ؟ وهل يُغسَّل؟ وهل يُجرَّد كما يُجرَّد الموتى؟ أو يوضع الماء على ثيابه؟ وقد أخرج محمد ابن إسحاق[(١)] من حديث يحيى بن عباد بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة رضي الله عنها قالت: (اختلف أصحاب رسول الله ﷺ: أَنُجرِّدُ رسول الله كما نُجرِّدُ موتانا، ونغسله كما نغسل موتانا أم نصب عليه الماء، قالت: فو الله لم يلبث الناس حتى غلبهم النعاس حتى طرقت ذقونهم، فناداهم منادٍ: أن اغسلوا رسول الله ﷺ وصبوا عليه الماء صباً).

(١) كما في سيرة ابن هشام (٤ / ٤٥١_ الروض).

ثم اختلف أصحاب رسول الله أينَ يُدْفَن رسول الله؟ أيدفن في مكة موطن مولده ومبعثه وقبر جده وقبلته؟، فقال قوم من أصحاب رسول الله: يدفن في بيت المقدس قبلته الأولى وقبر جده، ومنهم من قال: بالمدينة في هجرته ودار أنصاره، وأزواجه ومسجده، حتى نزع الخلاف أعلمُ الناس في الأرض بعد رسول الله ﷺ من أمته أبو بكر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدفن الأنبياء حيث يقبضون**».

فدفن رسول في البقعة التي توفي فيها في حجرة عائشة.

ثم حدث ما حدث من خلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان أول خلاف بعد ذلك من يلي الخلافة بعد رسول الله، ولكنه أمر يسير، فقال الأنصار ببيعة سعد بن عبادة الخزرجي، وقام القرشيون بقول الرسول ﷺ «الأئمة من قريش»[(١)].

فَنُزِعَ الخلاف بقول رسول الله، واجتمعت كلمة الأمة بكلامه والعلم بالوحي.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢١٣)، والحاكم (٤/ ٧٥-٧٦).

ثم حدث ما حدث حينما ارتد من ارتد من العرب، وخالف عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أبا بكر في قتالهم، حتى سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ قوله «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويُؤْتُوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها».

فأذعن عمر للحق لكلام رسول الله، فقام خير أهل الأرض، وأعلمهم بالله أبو بكر، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويُؤْتُوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها)[١].

ثم ما حدث من الخلاف في إرث رسول الله، وحسم الأمر أبو بكر بقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورَث، ما تركناه فهو صدقة)[٢].

خلاف يسير سَهُلَ دَحضُهُ بالعلم من العلماء العارفين، ولذلك كان أصحاب رسول الله أمنة لهذه الأمة، وذلك لما

---

(١) البخاري (٢٥) ومسلم (٣٢).
(٢) الترمذي في الشمائل (٤٠٥ - مختصر).

نالوه من العلم بالوحي.

ثم اجتمعوا بعد ما حدث من أمر يسير على قتال المرتدين من مَنْعِ الزكاة[١].

ثم اشتغلوا بقتال طُلَيْحَة حينما تنبأ حتى انهزم إلى الشام، ورجع إلى الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب، وشهد مع سعد بن أبي وقاص نهاوند والقادسية، وقتل في نهاوند.

ثم اشتغلوا بقتال مسيلمة وسجاح والأسود العنسي ثم بسائر المرتدين.

ثم اشتغلوا بقتال الروم والعجم وغيرهم، فقد كان أصحاب رسول الله على قول واحد في التوحيد والعدل والوعد والوعيد، وإنما خلافهم في الفروع كميراث الجد مع الأخوة، والعول والكلالة وغير ذلك مما أمره يسير، وذلك مصداقا لكلام رسول الله ﷺ: «أصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

ولذلك بقي أصحاب رسول الله على كلمة سواء، ينزع

(١) انظر الكامل في التاريخ (١/ ٢٠١) لابن الأثير رحمه الله، والبداية والنهاية (٦/ ٧٠٢) للحافظ ابن كثير رحمه الله.

فتيل الخلاف من أول وهلة بقيام العلماء بواجبهم بيان الحق، و الصدع به، ودحض أهل الشر بالدلائل من الكتاب والسنة، وبقوا على ذلك في خلافة أبي بكر وخلافة عمر، وست من خلافة عثمان ﵁ حتى نَقِمَ عليه من نَقِم، وقتله ظالموه، ونشبت في أواخر عصره بين أصحاب رسول الله فرقة.

وما حدث مع على ابن أبي طالب ﵁ من واقعة الجمل ومعاوية وصِفِّين، وحَكَمِ الحَكَمَين وغير ذلك من تبعاتها، حتى ظهرت في أواخر عهد أصحاب رسول الله في عهد عبد الله بن عمر، ظهرت بدعة القدرية، أحدثوا القول بالقدر والاستطاعة.

وكذلك في عهد التابعين، في عهد الحسن البصري ظهرت بدعة الاعتزال، وظهر واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وأظهرا بدعة الاعتزال وهذا مصداق لكلام رسول الله ﷺ: «وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

وقد كان الصحابة على كلمة سواء في العدل والتوحيد والوعد والوعيد، حتى بَعُدَ الناس عن العلم شيئا فشيئا، وابتعدوا عن منهل العلم، ووقع الخلاف والفِرقة.

ولما قَصَّرَ العلماء في واجبهم ظهر الشر والفساد في الأرض وظهر الجُهَّال مكان العلماء، فيضلون الناس بقولهم وبُعْدِهِم عن كلام الله، ولذلك يقول النبي ﷺ «حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

العلماء هم حملة الأمانة، ومن أخذ الله عليهم الميثاق، ثوابهم وافر مدرار، وحسابهم شديد عسير، قال الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧].

فامتدح الله من وفى بعهده وميثاقه منهم فقال الله – جل وعلا – ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد].

وحذر الله من مخالفة أمره و تَنَكُّبِ الدليل مع ظهوره، ولذلك أمر الله بالرجوع إلى العلماء؛ لأنهم إن خالفوا كانوا أشد الناس عذاباً عند الله، فقد أخذ الله عليهم الميثاق.

يقول قتادة – كما روى ابن جرير الطبري في تفسيره[1] –: «هذا ميثاق الله أخذه على أهل العلم، فمن عَلِمَ شيئا

---

(١) (٣/ ٥٤٤).

فَلْيُعَلِّمْهُ وإياكم وكِتْمَان العلم، فإن كِتْمَان العلم هَلَكَة».

فإن فَرَّط أهل العلم بالبلاغ والقيام بميثاق الله فعلى الأمة العفاء والدمار.

فَفُتْيَا العالِم بغير ما يَعلم كذب على الله، قال الله - سبحانه وتعالى - ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزُّمَر: ٦٠]، فالفتوى بغير علم كذب، فمتى فرط العلماء في بيان مهمات الأمة وما يتعلق بمصيرها ونهضتها، وجعلوا الحديث للرعاع ضلت الأمة، وانحرفت عن مسيرها.

ومن نظر إلى حال المسلمين في الأندلس وحال علمائها لما انشغل علماؤها بالجزئيات عن الكليات، وانشغلوا عن الأصول بالفروع، وتركوا أصول الأمة التي هي بحاجة إلى غرسها في النفوس = سقطت بلاد المسلمين، وقد ذكر بعض علماء المغرب: أنه لما كان الاستعمار قد أتى إلى بلاد الشام قبل عقود، كان العلماء منشغلين بالفروع وبالجزيئات، وبالاختلاف وبالفرقة، والمستعمر على مشارف بلادهم، حتى قال أحد علماء المغرب: حينما قدمتُ الشامَ، والاستعمارُ على بلادهم: دخلت مجلساً من مجالس أهل العلم، فإذا هم يتدارسون

حال المرأة حينما يخرج لها لحية، هل يجوز أن تحلقها أم لا؟ حتى حل عليهم الدمار والوبال، وفرطوا فيما أمر الله بأخذه والقيام به، فحل ببلاد المسلمين ودمائهم وأعراضهم ودينهم ما حل.

وقد جعل الله العلماء هم الدلالة إلى الحق، والدلالة إلى الصواب، وجعل لهم في سبيل ذلك الأذى لتعلوا منزلتهم عنده، ولذلك يقول الرسول ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

الأنبياء ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر، وورثوا أيضا تبعاته، ومن تبعاته ما يحصل للعلماء من أذية وابتلاء وامتحان، ومن وقيعة في أعراضهم.

وقد حذر الله من عدم القيام بالحق وبيان الخير للناس، وتحذيرهم من الشر، وحذر الله من سلوك طريقة بني إسرائيل من كتمانهم للحق ولبسهم الحق بالباطل، ولذلك قال الله - جل وعلا - ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧١].

وقال: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

وحذر الله من كتمان البينات التي أنزلها الله على نبيه

للناس عامة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال القرطبي رحمه الله: في تفسير هذه الآية «أخبر الله أن من كتم الحق بعد ظهوره وبيانه عنده أنه ملعون بلعنة الله، ولعنة اللاعنين، وهم الملائكة»[1].

إذاً فالله قد أخذ على من أوتي علماً - ولو كان يسيراً - أن يجعل له الرفعة في الدنيا والآخرة، ومقابل ذلك ضريبة عظيمة إن فرط فيما أمر الله به، وإن حصل له ما حصل من السفهاء من التنقص والوقيعة في الأعراض، ولذلك كان رسول الله ﷺ إمام الناس في ذلك.

والعلماء الحق هم الذين يخشون الله عز وجل في ذلك، ويخشون الله ﷻ في قولهم وفعلهم.

فبين الله أن من أعظم سماتهم وعلاماتهم خشيتهُ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ولما اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في بعض الأحكام كان قدوتهم هو أخشى الناس لله رسول الله، فقال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٨١).

بعضهم : لا أتزوج النساء، وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر، فقال رسول الله ﷺ «إن أعلمكم بالله، وأخشاكم، وأتقاكم له لأنا»[1] لم ؟.

لأنه كان هو صاحب الوحي المُنَزَّل فهو أعلم الناس وأخشاهم لله.

وقد علل رسول الله ﷺ كونه أعلم الناس، أنه أخشاهم لله، فهذا هو الأصل أن يكون العلماء هم أخشى الناس لله، وذلك لأنهم أعلم الناس بوحي الله، وكُلَّمَا كان الإنسان عالماً بالله، عالماً بوحيه من كتاب وسنة، يلزم من ذلك ضِمْناً أن يكون أخشى الناس لله، تعبداً وامتثالاً لأمره.

روى الإمام مالك في الموطأ من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «إنما العلم الخشية».

ومن علامة أهل العلم خشية الله، وإكثار العمل والتعبد لله، وذلك هو الفيصل بين أهل الزيف وأهل الحق.

وقد جعل الله العلم الحق فيمن يخشاه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨].

والعلم الذي لا يدل الإنسان إلى الخشية، ولا يدله

---

(١) البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

على عبادة الله ولا يدله على الخير، ولا يقربه من الله ولا يبعده عن زخارف الدنيا التي لا تنفع؛ فإن هذا ليس بعلم، بل إنه جهل يضر الإنسان ولا ينفعه.

وقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس بالله، وكان أصحابه من بعده كذلك.

العالمون بما لديهم من علم هم أقرب الناس إلى الصواب.

ولما حضرت الإمام أحمد رحمه الله الوفاة - كما ذكر القاضي ابن أبي يعلى في الطبقات - جاء إليه أحد أصحابه فقال: أدع الله أن يخلفنا فيك خيراً، فمن تدلنا أن نسأله بعدك؟، قال: سلوا عبد الوهاب. فقال رجل ممن حضر مجلسه: إنه قليل البسطة في العلم، فقال: إنه رجل صالح فمثله يوفق للصواب.

وقد حذر الله ممن يقوم بأمر الله بقوله، ويجتنبه بفعله، وجعل ذلك علامة على عدم خشية الله، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٤].

وقال الله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢].

حذر الله من أن يقول الإنسان بلسانه ما لا يفعله،

فالعلماء الحق هم الذين يخافون الله.

ذكر القاضي ابن أبي يعلى في الطبقات قال: ذُكِرَ في مجلس أحمد بن حنبل معروفٌ الكرخيّ فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال الإمام أحمد: أمسك عافاك الله، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف.

فيعرف العلماء الحق بالعبادة والعمل، واجتناب المحرمات والتقلل من الدنيا.

ولذلك يقول الإمام أحمد: «سمعت سفيان بن عيينة يقول: ما ازداد الرجل علماً فازداد من الدنيا قربا إلا ازداد من الله بعداً».

وهذا هو الميزان في معرفة أهل العلم الحق، حملة الميثاق الصادقون القائمون بأمر الله، وهذا هو الميزان العدل، فإن الإنسان بعلمه خصيم نفسه، فإذا رأى الإنسان أنه كلما ازداد من العلم قرب من الدنيا، وقل من العبادة والعمل، فإن ذلك علامة بينة للخسارة وعدم التوفيق وعدم الإخلاص.

ولذلك يجب على الإنسان إن كان من أهل العلم، أو تحصل له علم يسير أن ينظر إلى عمله بما علم، فالعبرة إذاً بالعمل بما علمه من كلام الله، لا بآراء الناس ولا الالتفات إليها، ولا الركون إليها.

يقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علامة الزهد في الدنيا وفي الناس، أن لا تحب ثناء الناس عليك، ولا تبالي بمذمتهم، وإن قدرت ألا تعرف فافعل، ولا عليك ألا تعرف، وما عليك ألا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إن كنت محموداً عند الله»[١].

ومن أحب ألا يُذكر ذُكِر، ولذلك كان العلماء كلما ابتعدوا عن قول الناس وحب مدحهم رفعهم الله، وكلما اقتربوا إلى حب الناس ومدحهم أبعدهم الله، وأخمل ذكرهم وجعلهم في الأسفلين، وكم من الناس منزوٍ في داره، لكنه من أهل الخشية والعبادة لله، فرفع الله ذكره وأعلى شأنه، وهذا مصداق كلام الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨].

وقد حذر الله مما يحول بين أهل العلم وبين قول الحق، والقيام بأمر الله، وحذر من ذلك أشد تحذير.

ومن أعظم ما يقوم به الإنسان العالم في هذه الأرض أن يصدع بأمر الله، وأن يقول لصاحب الباطل: أخطأت، ولصاحب الحق والخير: أصبت، ولذلك جعل الله مناط

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٠).

الخيرية بهم، قال الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

ولا يمكن للإنسان أن يتحقق فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهليته في ذلك، إلا أن يتحقق فيه العلم بالمعروف والعلم بالمنكر، والتمييز بين المنكر والمعروف، وألا يتخبط بين هذا وهذا، فإن مَيَّز كان من أهل العلم، ودعا إلى الله على بصيرة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

الدعوة إلى الله لا تكون بالجهالة، وإنما على بصيرة وعلى منهاج محمد ﷺ.

وقد حذر الله من سلوك السبل التي تضل عن سبيل الله، فقال الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٣].

قد روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم من حديث ابن نجيح عن مجاهد بن جبر قال: «السبل: البدع والشبهات»[١].

---

(١) جامع البيان (٥/٣٩٦).

هي تضل الإنسان عن طريق الله، ومعرفة الحق من الصواب.

فإذا قصر أهل العلم بواجبهم فعلى الأمة العفاء، وإذا أمسكوا عن قول الحق فعلى الأمة الدمار، فالعلماء هم قادة الأمة، وهم الذين يتقدمون الشعوب والأمم، ولذلك جعل الله لهم من الملكة في قلوب الناس مالهم.

وحذر الله من مجاملة الناس ومحاباتهم في أمر الله.

ومن أعظم ما يواجه القائمين بالحق الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أهل العلم، الذين قاموا بعهد الله ولا يريدون نقض ميثاقه، أمور:

أولها: الابتلاء والامتحان، فذلك سنة ماضية، ولذلك يقول الرسول ﷺ «العلماء ورثة الأنبياء».

فما الذي خلفه الأنبياء؟ خلفوا الوحي كلام الله، فالأنبياء ورثوا العلم وتبعاته، ومن تبعاته ما حصل لأنبياء الله، فهو من ذلك الميراث.

فرسول الله، وهو من هو بالمقام المحمود المرفوع، والذي جعل الله له النصرة والتمكين والتأييد بوحي الله، ومن جعل له روح القدس معيناً، وقاتل معه الملائكة إلى

جنبه صفاً في وجه أعداء الله، ووعده الله بالنصرة والتمكين في هذه الأرض، ومع هذا أوذي رسول الله ﷺ فحصل له من أنواع الابتلاء - وهو إمام أهل العلم - ما حصل، فَطُعِنَ في رسول الله، واتهمه الجهلاء بالجهالة وبالسحر وبالجنون وبالكهانة، وطُعِنَ في عرض رسول الله ﷺ.

فُطِعَن في عائشة رضي الله عنها، وأرادوا بذلك الوصول إلى عرضه، بل تُعُدِّيَ على دمه، وَشُجَّ رأسه وأُدْمِيَت قدماه وَكُسِرَت رُبَاعِيَّتُهُ، وحصل له ما حصل.

بل حوصر في شعب مكة ثلاث سنين، لا يُجْبَى له طعام إلا خفية، وهذا هو رسول الله وَرَّثَ العلم وتبعاته، ومنها الابتلاء.

وقد أمر الله أهل العلم بأن يقوموا بأمر الله، وألا يسعوا إلى إرضاء الناس، على شتى مستوياتهم، ولذلك كتب معاوية إلى عائشة كما روى الإمام أحمد في «المسند» والترمذي[١] من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن معاوية كتب إلى عائشة يستنصحها، فكتبت عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أرضى الناس

(١) الترمذي (٢٤١٤).

بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

هذا هو الميزان، فما من أحد قام بالحق وبنصرة الملة، والدعوة إلى الله وبيان الحق وبيان الشر، إلا رفعه الله في وقته وبعد وقته، وحفظ قوله، وصان الناس عرضه، وذبوا عنه، وعملوا بقوله.

لذا كان الإمام أحمد رحمه الله لم يكتب من رأيه حرفاً، وكان أشد الناس ورعاً في ذلك، وكان أكثر الأئمة الأربعة روايات نقلها عنه أصحابه، حتى أنه يُنْقَلُ عنه في بعض المسائل نحواً من عشر روايات أو وجوه، وذلك أنه قام بحق الإرث النبوي حق قيام، وكذلك أحب ألا يُذْكَر فَذُكِر، ولذلك أصبحت كلمة الإمام لصيقة بأحمد بخلاف غيره، فيقال: فلان وفلان والإمام أحمد، يحكيها الناس هكذا تجري على ألسنتهم من غير تكلف، جعلها الله وصفاً ملازماً له؛ لأنه صدق الله فصدقه.

أهل العلم لا يسعون إلى إرضاء الناس وإنما أخذ الله عليهم الميثاق ألا يرضوا إلا الله، وإن سعوا إلى إرضاء الناس، واتكلوا على أقوالهم ورضاهم، وتهيبوا سخطهم سَخِطَ الله عليهم وأبعدهم، ولذلك كان أئمة الإسلام من

الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم يلتمسون رضا الله، لا يتهيبون أحداً، مهما كان في قول الحق.

فما من أحد يسلم من قول الناس ونقدهم، وإذاً ما بقي إلا اتباع الحق والقول به، والإعراض عن النقد مادام الطريق نزيهاً واضحاً، ولذلك يقول أبو مسلم الخولاني: «كان الناس أوراقا لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا أوراق فيه، إن سَبَبْتَهُم سَبُّوك وإن ناقدتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن فررت منهم أدركوك، فقال له رجل كيف أصنع؟ قال: أعط من عرضك ليوم فقرك» أي سلمهم عرضك ما دمت تقوم بالحق، أعطهم من ذلك ليوم فقرك، حينما يجتمع الخصوم عند الله، فتكون فقيراً تحتاج إلى شيء يسير، يأتي إليك الغنى من أقوالهم وذمهم وطعنهم في عرضك، فَتُرْفَعُ عند الله منزله، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «يخرج المؤمنون من النار، فيوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصون حقوقاً كانت بينهم»(١).

ولذلك أُمِرَ أهل الحق وأهل العلم، قَلَّ العلم عندهم أو كثر، ألا يراقبوا إلا لله في قولهم وفعلهم، فإنهم إن راقبوا الله نصرهم الله في الدنيا، ونصرهم وآمنهم يوم

---

(١) البخاري (٢٤٤٠) و(٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الفزع الأكبر.

* ومن العقبات التي تحول دون القيام بأمر الله: النظر إلى أهل الحظوة والهيئات، والطمع فيما عندهم، أو خشية فوات الرفعة والمكانة إن قال العالم بما يعلم، ولذلك كان رسول الله ﷺ لما بُعِثَ في قريش كان منهم الأشراف، ومنهم أصحاب السيادة، وأصحاب الشرف، فلم يلتفت إلى شرف ولم يلتفت إلى سيادة، وإنما التفت إلى الواجب فرفعه الله به، وأمره أن يعرض عن كل مشرك ظالم وما لديه من حظوة، قال الله ﷻ له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥]

ولذلك قَسم الله ﷻ من يعارضون كلامه إلى صنفين:

١- كفار كفروا بما حمله رسول الله ﷺ من الحق والصدق من وحي الله، فكذبوا وأعرضوا.

٢- ومستهزئون أضافوا إلى كفرهم استهزاءً بكلام رسول الله ﷺ، فتنقصوا وعيروا وسبوا وهددوا.

فأمر الله نبيه ألا يراقب إلا الله ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

ومن أعظم ما يصد الإنسان عن اتباع الحق وسلوكه هو

ما لديه من حظوة ورفعه وسيادة عند الناس يخشى فواتها، ولذلك كفار قريش ما أعرضوا عن اتباع محمد ﷺ إلا لما كان لديهم من حظوة وسيادة، وخوف من العار وسقوط ما لديهم من حظوة في الأرض يظنونها، مع أنهم رأوا الحق بأعينهم فأحجموا عن القول به، قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. جحدوا باتباع محمد والبوح بما لديه من الحق ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وهذا أبو طالب وهو أقل الناس عذاباً يوم القيامة قد صَدَّقَ بمحمد ﷺ بقلبه، ولكنه كفر بلسانه لأنه يخشى العار والشنار بزعمه، ويخشى فوات الحظوة، ويخشى السقوط عند الناس، مع أنه قد صَدَّقَ بمحمد ﷺ، ويعلم بقلبه أنه قد جاء بدين الحق، ولذلك قال في قصيدته المشهورة[١] في مدح رسول الله ﷺ:

والله لن يصلوا إليك (أي يا محمد).

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا

---

(١) البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٨).

فاصدع بأمرك ما عليك غظاظة

وابشر بذاك وقر بذاك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك صادق

ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت دينا قد عرفت بأنه

من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة

لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

لِمَ ؟ خشية العار والمسبة والوقيعة في العرض، وخوف فوت السيادة، فأسخط الله وأسخط النبي ﷺ، فبقي ذكره مضرب مثل للناس أنه أقل الناس عذاباً يوم القيامة.

وكان رسول الله عنده يقول له: «قل لا إله إلا الله» فنظر إلى هذه الكلمة وهذا الحق، دعاه إليه الرسول ﷺ وهو يعلم بقلبه أنه الحق، فنظر إلى السيادة والهيئة والرفعة، ومدح الناس وخشي سبهم وعارهم، فقال : «والله لولا خشية أن تعيرني بها قريش لأقررت بها عينك»[1].

فقال - ومات على ذلك - : هو على ملة عبد المطلب.

---

(١) مسلم (٤٢).

ولذلك كان رؤوس الكفر والضلال في هذه الأرض باقين على كفرهم، رغبة بالحظوة والهيئة والرفعة عند الناس، والسيادة، وهذا فرعون لما أدركه الغرق وهو يعلم أن الله واحد لا إله إلا هو، وكان قد ظن أن سيادته لا تبقى إلا بالكفر وإدعاء الربوبية، وغابت عنه تلك الحقيقة الكونية والحقيقة الشرعية أن الله يرفع الذين آمنوا القائمين بالحق في هذه الدنيا والآخرة، فلما أدركه الغرق تلاشت تلك الحظوظ، وتمزق نورها المزيف في عينيه، واستحال إلى ظلام دامس، احتاج إلى الرفعة، ونظر بنظرة متجردة فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

وتوبة الله تدرك العبد إن تاب ما لم يغر غر.

روى الإمام الترمذي(١) وغيره من حديث عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس مرفوعاً، قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل قال: لقد رأيتني يا محمد وإني آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة».

---

(١) الترمذي (٣١٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وقال الترمذي رحمه الله (حديث حسن).

ومن نظر إلى هرقل وكسرى وحال هرقل لما جاءه أبو سفيان[1]، وعرض عليه ما عنده عن رسول الله ﷺ فخشي من اتباعه وخشي فوت الرئاسة والحظوة، فمنعه ذلك من الإيمان بالله.

وإن من أعظم ما يحول بين الإنسان وبين القيام بالحق على اختلاف حال الإنسان، سواء أكان كافراً أم مؤمناً جاهلاً عاصياً أو عالماً أياً كان هو حب الحظوة والنظر إلى حال الناس، والرفعة والتمكين، ويغيب عنه أن الرفعة والتمكين هي بقول الحق، وبتأمل يسير لسنن الله الكونية والشرعية، يظهر ذلك جلياً عند من جعل الله له بصيرة، وانقاد لا تباع الحق، فكم من الناس طاشت سهامهم يلتمسوا أقوال الناس ورضاهم، ولكن جعل الله ﷻ ذلك سُخْطَةً عليه، وأسخط عليه الناس؛ لأنه ما أرضى الله، بل أرضى الناس، فسخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

ومن الواجب على من أراد الحق، وأراد اتباع سبيل إمام العلماء سيد الأنبياء، فلينظر إلى حقيقة الميزان الذي ورثه، فالعلماء هم ورثة الأنبياء فعليهم اتباعه في سبيله والنظر إلى حاله، ولْيُعْلَم أن النبي ﷺ كما أنه وَرَّثَ العلم ورث كذلك

(١) صحيح البخاري (٧).

تبعاته، فإن العلماء يرثون العلم ويرثون تبعاته، وتبعاته كثيرة، الرفعة في الدنيا والآخرة، والابتلاء في الدنيا.

ولذلك من أعظم ما ينبغي لأهل العلم والمعرفة، وطلاب العلم، أن يصونوا العلم ليصونهم، فلا يطلبوا به حظوة ولا يطلبوا به مدحاً، ولا يخافوا به ذما، فإن ترقبوا شيئاً من ذلك أسقطهم الله بسيئ عملهم، ومن صان العلم من أهل العلم صانهم ورفعهم، ومن لم يصن العلم لم يصنهم الله، ولذلك يقول الفضيل: «لو أن أهل العلم شحوا على دينهم، وأكرموا العلم وصانوه، وأنزلوه حيث أنزله الله، لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، ولو اشتغلوا بما يعنيهم لعز الإسلام وأهله، لكنهم استذلوا أنفسهم، ولم يبالوا بما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا ما في أيديهم، فذلوا وهانوا على الناس.

وقد حذر الله من الركون إلى شهوات الناس ومطامعهم، وحب إرضائهم، وجعل الله الفيصل بين العالم الحق وغيره هو الميل مع ذلك، أو مع كلام الله.

فمن مال مع كلام الله ارتفع، ومن مال مع كلام الناس وشهواتهم وأقوالهم وأرائهم وحبهم وُضِع.

ولذلك يقول سفيان ابن عيينة: «ما ازداد الرجل علماً فازداد من الدنيا قرباً إلا ازداد من الله بعداً» وهذا هو الميزان.

ومن أعظم ما يجعل الإنسان قائما بالحق آمراً بالخير ناهياً عن الشر، ألا يجعل لأحد من أهل الدنيا عليه مِنَّة، خاصة من أهل الضلالة والغواية، وأهل السيادة والمال والجاه، ومعلوم أن الغَلَبَة في أهل الجاه أنهم على غير هداية تامة، ولذلك قال الله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

ولقد كان العَالِمُ الحق لا يسأل أحداً من الناس شيئًا من مسائل الدنيا يكون بسؤاله ذلك عليه مِنَّة، ولا يُحَابي بقوله أحداً ولا يجامله.

وما زال أهل العلم من السلف والخلف، يحذرون من أن تُغْشَى مجالس أهل الرئاسة والسيادة، إلا بالنصح والإرشاد والدلالة، مع الصبر على الأذى.

يقول الإمام مالك: «أدركت بضعة عشر رجلاً من التابعين يقولون: لا تأتوهم»، لأن النفوس تتشوف إلى الدنيا وتركن إليها، فيغلب على الإنسان ترك الحق، ويغلب

على قلبه التساهل بالقيام بالحق، بل ربما الإغضاء عن بعض المسائل الظاهرة الجلية، طلباً لمصلحة تُزْعَم ونحو ذلك.

فالعلماء ليسوا كغيرهم من سواد الناس، فقد يغلب على أحد من الناس مطمع من الدنيا ويركن إليه، لا يؤخذ بقوله إن قال في دين الله شيئاً.

ومن نظر إلى فطرة الإنسان، وجدها ميالة للهوى، ولننظر إلى حاله على اختلاف ديانته، وملته، وعرقه، سواء أكان كافراً أم مسلماً أعجمياً أم عربياً، حاله مع الرئاسة والوجاهة وحاله قبل توليها وبعد تجرده منها، فإنه قبل الرئاسة أصوب بالنظر له، وتقويم الأمور ومعرفة الحق من الباطل وتمييزه، والفيصل فيه.

فحينما يأتي إلى ما هو من السيادة والحظوة في الناس، يضطرب ويطيش وتطيش سهامه هنا وهناك، وحينما يدعها وراءه سواءً أكان مكرهاً أم راغباً فإنه يرجع إلى ما كان عليه قبلها، سواءً كانت الرئاسة في كفر أو في إيمان، رئاسة في دين أو في دنيا، وهذا معلوم في أحوال الناس ولذلك من نظر إلى حال أهل السيادة حتى في الغرب الكافر حينما يتولى الإنسان عن منصبه سواء بالعزل أو الرغبة، يطيش

فكره ولسانه سباً وطعنا لما كان عليه، ويقول ما كان يحجم عنه قبل ذلك لأنه قد انتهت من قلبه تلك العلائق، وأخذ يقول قولاً لم يكن يقوله في السابق فرجع إلى ما كان عليه، فتجرد من الحظوة والنظر إلى حال الناس وعاد إلى ما كان عليه.

والإنسان لا يقال إنه يدع الدنيا والمتعة فيها بإطلاق، ولكنه ليعلم أن في الغالب أن الركون إلى مثل ذلك يملك القلب ويأسره ويجعل الإنسان وخاصة أهل العلم بين أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: إما أن ينقلب الميزان لديه، فيرى الباطل حقاً، ولا يرى الحق إلا باطلاً، ويلتمس الأعذار يمنة ويسرة، وتغيب عن قلبه خشية الله، والقيام بأمره، وكل ذلك لو تأمله بتدبر سببه الحظوة والنظر إلى المال والجاه.

والحالة الثانية: أن يعرف الحق من الباطل، لكنه يُهَوِّنُ من جانب الحق، أو يجعله أمراً مرجوحاً ينبغي ألا يصار إليه، وإن أحسن الظن فيه يرى أن اجتماع الناس على قول مرجوح، خير من الافتراق على قول راجح.

وهذه قاعدة قد عمل بها أئمة الإسلام، ولكنهم لم يطلقوها في كل حال، فالنصوص الصريحة من الوحي

والأدلة الظاهرة المحكمة لا تُضرب بالمصالح، فالافتراق على تقرير أصول الإسلام خير من الألفة على نقيضها، إن كان ثمة أُلْفَةٌ تحصل، لا تكون إلا بالوحي، وباتباعه واتباع الدليل والنظر فيه واتباع كلام رسول الله ﷺ.

فلا تضرب النصوص الظاهرة المحكمة بما يسمى بالمصالح، أو جمع كلمة الناس، وإذا كان الدليل ظاهراً محكماً ولا ثمة مفسدة هي أعظم منه، قد حذر الشارع من ارتكابها، ارتكابا ينقض أصلاً، فإنه حينئذ لا مصير إلا بقول الحق، فإنه لا مصلحة إلا هو.

فاستصحاب الأصل أو الاستحسان أو المصلحة ليست مُسَوِّغاً لتنكب الدليل الواضح، واتباع الباطل أو الاستدلال بالقول أن اجتماع الناس على قول مرجوح، خير من افتراقهم على، قول راجح، فيقال إن ذلك حينما يكون الخلاف سائغاً وحينما يكون الدليل ظاهراً، وثمة قوم من السلف لهم دليل في هذه المسألة، قد يصار إلى قول مرجوح وترك القول الراجح.

أما أن يكون القول المخالف باطلاً فلا يحل لأحد أن يجمع كلمة الناس على قول باطل، فلابد من قول الحق وإن دق، فبهذه التسويغات تطمس الشريعة ويثلم الإسلام،

وحينئذ فالعفاء على الأمة وعلى الإسلام.

ومع هذا كله يجب على الناس عامة تعظيم أهل العلم، وأن يلتمسوا لهم العذر، ما دام لهم سلف في أقوالهم، وليحذروا من الوقيعة في أعراضهم، فإن لحوم العلماء مسمومة، فهم ورثة الأنبياء ما دام أنهم على دليل وأثر من الكتاب والسنة، والطعن فيهم طعن فيما يحملونه في الغالب.

فإذا كان للرجل سلف من الصحابة والتابعين فهو على أثر.

ولذلك يقول ابن القيم: «إن رأيت الله ورسوله في صف، فعليك بصف الله ورسوله، وإن رأيت الناس كلهم في صف آخر».

وإن جمع العالم كلمة الناس على قول مرجوح يعتقد عدم رجحانه وغيره هو الراجح عنده فهو على صواب وهداية وحق، إن أخلص لله - سبحانه وتعالى -، ما دام أن الجمع لا يكون إلا عليه، وإن كان يعتقد أنه مرجوح، وقد حكي جواز ذلك عن غير واحد من الأئمة كالإمام الشافعي والإمام أحمد، وحكاه ابن رجب عن غير واحد من السلف، ولذلك ينبغي لأهل العلم أن يلتمسوا العذر

لبعضهم ما دام أنهم على دليل وأثر من الكتاب والسنة، وعلى قول من السلف.

فائتلاف الأمة مقصد عظيم جليل، وترك السنن وترك بعض الواجبات مما لا يستلزم من ذلك إثما عظيم، أو نقضاً للأصل، أو تبديلا لمعالم الإسلام وأصوله فَيُظَنُّ بذلك الترك تبديلا أو تحليلا لما حرم الله أو تحريما لما أحل الله، وذلك لمقصد ائتلاف الناس فهذا مقصد شرعي.

ولهذا حث الله على اجتماع كلمة الناس وتآلفهم، وقد أشار إلى هذا المعنى غير واحد من العلماء كابن تيميه، وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه حين صلى خلف عثمان تماماً، وقيل له في ذلك: إنه يخالف رأيك، فقال «الخلاف شر»[١] وكان يرى قصر الصلاة ركعتين، فاقتدى بمن خالفه لأن ذلك يلزم منه الخلاف والفتنة، وكذلك فإن من قَصُرَ به العلم والنظر فعليه أن يلتمس العذر لأهل العلم والمعرفة، فأهل العلم أصحاب نظر لكلام الله وكلام رسول الله، لا يلتمسون أذواق الناس ورضاهم وإنما يلتمسون رضا الله، فليس كل ما لا يروق للإنسان يقدح في قائله، فالناس رضاهم غاية لا تدرك.

---

(١) أبو داود (١٩٦٠).

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «رضى الناس غاية لا تدرك، فعليك بما يصلح نفسك».

إرضاء الناس محال، ومن تبع ذلك وأراده فإنه سيؤول إلى وبال، وسيخرج صِفْرَ اليدين، ما لم يتبع قول الله ويقف عند حدود الله، فإن الله يرفعه بذلك.

ولذلك توعد الله من عَلِمَ الحق وَتَنَكَّبَهُ وقال بغيره، ويعلم أنه هو الظاهر لديه، وما غيره هو الباطل، وقد جعل الله - جل وعلا - الرجل يأتي يوم القيامة فتندلق أقتابه في النار، فيدور فيها كما يدور الحمار في الرحى، فيقول له أهل النار: يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وكنت أنهاكم عن المنكر وآتيه.

قال الله معاتباً أهل العلم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البَقَرَة: ٤٤].

وأخبر رسول الله ﷺ كما في الصحيح قال: «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة - وذكر منهم - رجل تعلم العلم وَعَلَّمَهُ، وقرأ القرآن، فأتى الله ﷻ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العلم وعَلَّمْتُهُ، وقرأت فيك القرآن قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت

القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار»[١] والعياذ بالله.

هذا لأنه قد جعل شرفاً عظيماً في الدنيا، ينال به الإنسان الرفعة يوم القيامة، جعله لحظوة خاصة فجعل الله منه حطباً لجهنم، وأنه من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، لأنه خان الأمانة وضيع الميثاق الذي جُعِلَ في عُنُقِهِ؛ لأنه به يَهْتَدي الناس وبه يتأسى.

وقد حذر الله من التفريط في ذلك، وتوعد بالوبال والعقاب الشديد من خالف أمره، ولذلك لما كان العقاب خطيرا شديدا على العلماء، كانت نفوسهم على الأغلب أَبْعَدَ عن الوقيعة في ذلك فكانوا هم أهل القدوة والاتباع.

ويجب على أهل العلم أن يقوموا، ويظهروا للناس بقول الحق وَلِيُعْلَمْ أن البُعْدَ عن قول الحق والاختفاء به، والقول به سراً علامة وبال، وظهور لأهل الباطل والجهالة، فما يظهر الباطل إلا باختفاء الحق وأهله، وما يظهر أهل الجهالة إلا باختفاء أهل العلم، كما قال أبو مسلم الخولاني «العلماء كالنجوم إن ظهروا اهتدى بهم

---

(١) الترمذي (٢٣٨٣)، والنسائي (٣١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الناس، وإن اختبؤوا تحيروا».

ولذلك يجب على أهل العلم ألا يضيعوا الأمانة، وأن يقوموا بأمر الله، فإن ضيعوا الأمانة وعملوا بغير ما أمر الله به، فقد فرطوا وضيعوا.

ومما يجب الحذر منه ما يجعل كلمة حملة الميثاق هينة لدى الناس، فلا يُسْمَعُ لهم قول، ولا يُؤْبَهُ لقولهم، ومن ذلك أمور كثيرة منها:

١- انشغال أهل الميثاق بجزئيات يسيرة عن مصالح الأمة، كالانشغال بالوعظ فقط، أو التذكير فقط، وإهمال جانب التفقيه والتعليم، خاصة إذا كانت الأمة تترقب مصائب عظيمة، أو تشتكي اندثار التوحيد من الطعن فيه، والطعن بأهل العلم ومعالم الإسلام، وتعدي الجهال والزنادقة على توحيد الله.

ولذلك قد انطبع عند كثير من الناس ممن غلب عليهم الجهل، أن العلم إنما هو في المساجد، وأن قادة العلم يقودون الناس بالعبادة المحضة فقط، وذلك ما كان ليكون إلا لمَّا قادَ أهل العلم الناس بإمامة الصلاة وبالجُمَع، ولم يقودوهم خارج المساجد وخارج بيوت الله، فأهل العلم هم

قادة الناس في المساجد وغيرها، وفي سائر ميادين الحياة.

فدين الله يجب أن يُعْتَنَى به في سائر جوانبه، فالله قد جعل شريعته عامة لسائر شئون الحياة، فالإسلام هو اقتصاد وهو اجتماع، وسياسة، وأخلاق، وسلوك، وعقيدة، وعبادة، كل ذلك من دين الله لا تنفك حياة الناس عن دينه، فالنوم واليقظة والغدو والروح والذهاب والمجيء، كل ذلك لا يخلو من تشريع ومن عبادة.

والأمر الثاني: العمل بما أمرهم الله به، فإن قَلَّ عمل أهل العلم بما أمرهم الله به، قل الأخذ عنهم والتأسي بهم، ولذلك فإن العلماء في الناس ليسوا بقدر علمهم وما يحملونه من معرفة الخلاف ومعرفة الدليل أو الحفظ ونحو ذلك، وإنما هو بهذا ومعه العمل بما أمر الله به.

ولما سئل الإمام أحمد لما حضرته الوفاة، من نسأل بعدك؟ قال سلوا عبد الوهاب، فقيل له: إنه قليل البسطة في العلم، قال: إنه رجل صالح، مثله يوفق إلى الحق».

وقال قولته المعروفة في معروف الكَرْخِي رحمه الله لما قيل: إنه قليل العلم، قال: وهل يُرَادُ من العلم إلا ما وصل إليه معروف.

ولذا؛ حينما يعمل العلماء بما أمرهم الله به فيمتثلون القول والفعل حينئذ يتأسى بهم الناس، وانظر إلى الناس

في كل زمن وفي كل مصر، يتجافون عن علماء، ويقبلون على آخرين، ومدار ذلك هو هذا.

ومما ينبغي أن يعلم؛ أنه ليس كل ما يعلم من دين الله يقال، والله قد أمر بإقامة الحق وإقامة العدل، وكذلك أمر بتحديث الناس بما تعيه عقولهم، فتحديث العامة بدقائق العلم، وبعض أحكام النوازل التي لا تعنيهم، وبعض مسائل العلم، كبعض مسائل الصفات؛ مما لا تَعِيَهُ عقولهم لا ينبغي، بل ربما أشكل عليهم، وأحدث عندهم الوساوس، وعلى هذا فليس كل علم يقوله العالم، فإذا أحجم عالم عن قول مسألة ما مما يُظَنُّ أنها لا تعيها عقول الناس، مما لا يتعلق بها مصير الأمة، ويحصل بها مفسدة، ولا يقتضي ذلك تبديلا فإن ذلك مما يعذر به، وإلا فالأصل أن الله قد أمر بتبليغ الأصول والفروع، ولذلك قال الله مبيناً خطر الكتمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال أبو هريرة «لولا آيتان في كتاب الله ما حدثكم حديثا ثم تلى تلك الآية وما بعدها»، ويقول رسول الله ﷺ كما في المسند والسنن: «من سئل علماً فكتمه ألجمه الله

ﷺ بلجام من نار يوم القيامة»[١].

وهذا هو الأصل، لكنه قد يكون لعالم عذر في إسرار شيء من العلم، لا تعيه العامة، واجتماع الناس أولى، شريطة ألا يكون في ذلك طمس لحكم الشرع، وليس فيه تبديل لكلام الله، من تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، وإخفاء ذلك لا يكون إلا لبعض الجزئيات التي ليست هي أصول الدين وكلياته، ولذلك ذكر القاضي ابن أبي يعلى في كتابه الطبقات أن هارون الأنطاكي قال: كنت عند الإمام أحمد عليه رحمة الله تعالى، وربما أخرج إلي شيئا من أحاديث السلطان، فيقول لي: «يا أبا جعفر هذا خيط رقبتي فانظر كيف» يعني لا تُشْهِرهُ.

وكذلك قد ذكر الخلال قال: كان الحسن أبو علي الثعلبي صاحب حظوة عند الإمام أحمد، وله به أُنْسٌ شديد، قال الثعلبي: كنت إذا دخلت على أحمد يقول: إني أفشي إليك ما لا أفشيه إلى ولدي ولا إلى غيره، فأقول له: لك عندي ما قاله العباس لابنه عبد الله: إن عمر يكرمك ويقدمك فلا تفشي له سراً، قال: فإن أمت

(١) أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وقال الترمذي: (حديث حسن).

فقد ذهب، وإن أعش فلن أحدث بها عنك قال: فكان يفشي له أشياء كثيرة.

ولذلك اعتمادهم على مصلحة عظمى، وهي اجتماع كلمة الأمة، وتآلفهم وقربهم، ما لم يضيع ذلك أصلاً من أصول الدين، ويحدث تبديلاً لشرع الله، فاجتماع الأمة على قول مرجوح خير من افتراقها على قولٍ راجح، ما لم يكن ذلك في الأصول العظام وكليات الدين، ولم يقتض ذلك تبديلاً لشرع الله، أو تحليلا لما حرم الله، أو تحريما لما أحل الله.

وهذه قاعدة مهمة ينبغي أن تُفْهَم بشروطها وقيودها.

ولذلك فإن الأصول الكلية في الإسلام، أصول الديانة، والضروريات التي أمر الله ﷻ بحفظها وهي الدين والعقل والمال والنفس والعرض - هي أهم ما ينبغي حفظه وصونه وإظهار أحكام الله فيه، وهي ما أمر الله بحفظه وصيانته من التبديل والتحريف وهي مهمة العلماء القائمين بأمر الله.

أسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم لمرضاته وهو الموفق المؤيد، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

انتهى

